

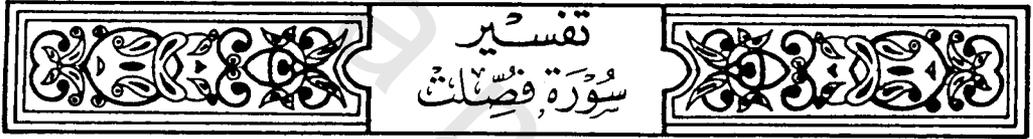
﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي عاينوا وقوع العذاب ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة، كما قال فرعون ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90] قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَنَرَاهُ فِي صَفْحَتَيْ قَبْلِكَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 91] أي فلم يقبل الله منه.

﴿فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغ» أي فإذا غرغ، وبلغت الروح الحنجرة، وعابن الملك فلا توبة حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة.

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: 102]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٧﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: 192-194].

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت آياته ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا بينًا واضحًا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكولة كقوله: ﴿كِتَابٌ أُتِّمَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [مرد: 1] أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِيهِ نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤١﴾ [فصلت: 42] وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا

عَمِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم عما جئنا به ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ

لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٤٦﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿٤٧﴾﴾ [الشمس: 9، 10] وكقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿٤٨﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٤٩﴾﴾ [الأعلى: 14، 15] وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ﴿٥٠﴾﴾ [النازعات: 18] والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته، وبركته، وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات أو معناها لا يؤدون الزكاة، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْأَمْتُهُمْ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ [الأنعام: 141] فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بيّن أمرها بالمدينة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ غير مقطوع ولا محبوب، كقوله تعالى: ﴿تَكُنَّ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: 3] وكقوله تعالى: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: 108].

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقندر على كل شيء فقال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا﴾ أي نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54] ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولاً، لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج إليه أهلها من الأرزاق والأماكن التي تغرس، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجبيا لأمرى، وانفعلا لفعلي طائعتين، أو مكرهتين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك.

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين آخرين، وهما الخميس والجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي ورتب مقررأ في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿وَحِفْظًا﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتمكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل فعلهما ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل، يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، أو ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي منوا بشدة تركيبيهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديد.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأَخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وهي شديدة الهبوب، وقيل: الباردة ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أي متتابعات ﴿لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأَخِرَةِ أَخْرَىٰ﴾ أشد خزيًا لهم ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ويدراً عنهم النكاح.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بينا لهم، أو دعوناهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي بصرناهم وبيننا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام فخالفوه وكذبوه وعفروا ناقة الله التي جعلها آية

على صدق نبينهم ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آَلَمُونَ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من التكذيب والجحود.

﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾

﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسههم سوء، ولا نالههم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبينهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وبتقواهم لله عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، يوزعون، أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا﴾ أي وقفوا عليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه، وأخروه، لا يكتف منه حرف.

﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِئَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِئَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فهو لا يخالف، ولا يمانع، وإليه ترجعون. روى البزار قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي، فيقول تبارك وتعالى: أليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردد هذا الكلام مراراً - قال - فيختم على فيه، وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل. ورواه ابن أبي حاتم، وقد أخرجه مسلم والنسائي.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا

يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون بالكفر

والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ أي هذا الظن الفاسد، وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون، هو الذي أنفلكم وأرداكم عند ربكم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا، هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعداراً ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ فما لهم أعدار، ولا تقال لهم عثرات.

﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْبَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته، وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله بما قوض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعالهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي استوا وإياهم في الخسار والدمار.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي تواصلوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن، ولا يتقادوا لأوامره ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له، وألقوا فيه، يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ. أو ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ عيبوه، أو أجددوا به، وأنكروه وعادوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلاء من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن، وقد أمر الله بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَجِبُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 204].

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ عَذَابِ

اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم قال عز وجل متصراً للقرآن، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا

شَدِيدًا ﴿٢٨﴾ أَي فِي مَقَابِلَةِ مَا عَمَلُوهُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَآءَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي بَشَرِ أَعْمَالِهِمْ، وَسِئَاءِ أَعْمَالِهِمْ. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ أَعْدَاهُ اللَّهُ النَّارَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا دَارُ الْخَالِدِ جَزَاءً يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٢٨﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ بِجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلْنَا﴾ إِبْلِيسَ، وَابْنَ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ، فِإِبْلِيسَ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبِ شَرِكٍ، وَابْنَ آدَمَ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ. وَفِي الْحَدِيثِ «مَا قَتَلْتَ نَفْسَ ظَلَمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». ﴿بِجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أَي أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ، لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أَي فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أَي أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ، وَعَمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَرِنِي بِأَمْرِ فِي الْإِسْلَامِ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ ﷺ «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ» قُلْتُ: فَمَا أَتَقِي؟ فَأَوْمَأَ إِلَى لِسَانِهِ. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يَعْنِي عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أَي مِمَّا تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَى مَا خَلَفْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا مِنْ وَلَدٍ وَأَهْلِ وَمَالٍ أَوْ دِينٍ، فَإِنَّا نَخْلُفُكُمْ فِيهِ ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فَيُشِيرُونَ بِذَهَابِ الشَّرِّ، وَحُصُولِ الْخَيْرِ. وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبِرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ: أَخْرِجِي أَيْهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، كُنْتَ تَعْمُرِيهِ، أَخْرِجِي إِلَى رُوحِ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَي تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ: نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَآءَكُمْ، أَي قَرْنَآءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نَسُدُّكُمْ وَنُوفِّقُكُمْ، وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ، نُؤْنِسُ مِنْكُمْ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ، وَعِنْدَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ، وَنُؤْمِنُكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَنَجَاوِزُكُمْ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَنُوصِلُكُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أَي فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النَّفُوسُ، وَتَقْرَبُهُ الْعْيُونَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أَي مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ، وَحَضَرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ كَمَا اخْتَرْتُمْ.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (٣٢)

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣)

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وهو في نفسه مهتد بما يقوله، ففعله لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق، تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك. وقيل: المراد بها المؤذنون الصالحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة» وفي السنن مرفوعاً «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين».

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ

وَلَيْ حَمِيمٌ﴾ (٣٤)

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك.

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥)

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَأِمَّا يَرَعْزَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦)

﴿وَأِمَّا يَرَعْزَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما يتخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله. والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ آتِلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ آتِلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياؤه، وهما متعاقبان لا يفتران، ﴿لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن أفراد العبادة له، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89] وفي الحديث «لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح، فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذاباً لقوم».

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنِ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنِ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه، أو هو الكفر والعتاد ﴿لَا يَحْفَونَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال. ولهذا قال: ﴿أَفَنَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة: وقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد، أي خيراً أو شراً، إنه عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ هو القرآن ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجناب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كذبت كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَبٌ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

هُدًى وَشِفَاءً ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه عى أن كفرهم به كفر عناد وتعننت كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٧٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء: 198، 199] وكذلك لو أنزلنا القرآن بلغة العجم لقالوا على وجه لتعننت وال عناد ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَبٌ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي لقالوا: هلا نزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك فقالوا: أعجمي وعربي، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ أي قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَٰلِغِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: 82] ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ كان من يخاطبهم يناديه من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ

وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي كذب وأوذي ﴿فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾

[الاحقاف: 35] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الشورى: 14] بتأخير الحساب إلى يوم

المعاد ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل العذاب، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: 58]

﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مَنَّهُ مُرِيبٌ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه .

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِّنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۖ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي قَالُوا ءَأَدَّبَكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۝٤٧﴾

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل ﷺ، وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِّنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا﴾ [الأنعام: 59] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوا ءَأَدَّبَكَ﴾ أي أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً .

﴿وَصَلَّ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ ۝٤٨﴾

﴿وَصَلَّ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ﴾ أي لا محيد عن عذاب الله كقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرِفًا ۝٤٩﴾ [الكهف: 53].

﴿لَّا يَسْتَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْتَوْسُقُ فَنُوطٌ ۝٤٩﴾

يقول تعالى: لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، وإن مسه الشر، وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَسْتَوْسُقُ فَنُوطٌ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير .

﴿وَلَيِّنْ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآةٍ مَّسَّتْهُ لِيَكْفُرَنَّ هَذَا لِي ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾

﴿وَلَيِّنْ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآةٍ مَّسَّتْهُ لِيَكْفُرَنَّ هَذَا لِي﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة

ليقولن هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي يكفر بقيام الساعة، أي لأجل أنه خول نعمة يطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٧٦﴾﴾ [العلق: 6، 7] ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلْيَنْتَهِزِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلِيَذِقَ الَّذِينَ مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه، وقل معناه، والوجيز عكسه، وهو ما قل ودل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ

بَعِيدٍ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق، ومسلك بعيد من الهدى.

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٩﴾﴾

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصر الله بها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عبده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٨٠﴾﴾

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون

له، ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعابون به، وهو كائن لا محالة، وواقع لا ريب فيه ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره، وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو.

تفسير سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿كَذَلِكَ يُوحىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

﴿كَذَلِكَ يُوحىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله. روى الإمام مالك عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ «أحياناً يأتيني الملك كأنني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيتَه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ لينعصر عرقاً. أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: 9] ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي

الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحِهِنَّ﴾ أي فرقا من العظمة. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله جل جلاله: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْعَرْنَ وَرَنَ حَوْلَهُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7] وقوله جل جلاله ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به.